ثقافة المتنبي ومصادرها[1]

في فاتحة القرن الرابع للهجرة ولد أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي في الكوفة وفيها نشأ وترعرع وشبّ ، وفيها تعلم وتثقف ، وفيها انبجست قريحته بالشعر ، فجوّده وأحكمه ، وفيها بلغ درجة الشعراء المفلقين .

ثم شاء القدر أن تنبو به وأن يجتويها ، فأجمع أمره على مفارقتها وضمّ جراميزه إليه ، ثم سار منها الى بلاد الشام ، فوضع فيها عِصِيّ الحاضر المتخيم ، وفيها غزر أدبه وحصف عقله ، وظهرت مقلدات شعره ، فسطع نجمه ، وذاع صيته ، حتى ملأ الدنيا وشغل الناس .

وقد رزق أبو الطيب السعادة التامة في شعره ، وكتب له من الرواج في أبهاء الملوك والأمراء والوزراء وأعيان الأمة ورجالات العلم والأدب ما لم يكتب لغيره ، ونال شعره من سرعة الشيوع والانتشار في القاصية والدانية ما لم ينله شعر آخر ، حتى سارت به الركبان ، وأنست به السُمّار ، وعمرت مجالس العلم والأدب .

وطمع كثير من الطامعين في الشهرة الطامحين الى الخلود أن يخلد ذكرهم في شعره الخالد ، واستدعوه الى قصورهم ومقار عظمتهم وسلطانهم ، وبذلوا له في سبيل ذلك أموالاً عظيمة ، ومنهم من وعده أن يشاطره ماله ويغمره بالهبات والأعطيات ، فلبّى فريقاً وترفع عن إجابة آخرين .

---

(١) هذه كلمة في ثقافة المتنبي ومصادرها ، أُلقيت مختصرة في حفلة مهرجان المتنبي التي أُقيمت في مدرج الجامعة في يوم ٢٩ تموز سنة ١٩٣٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وحسده الناس على فضله وأدبه وتنفسوا على ممدوحيه مدحه و كثر منتقدوه وعائبوه من حساده وممن ترفع عن مدحهم ومن أشياعهم ، وفي مقدمة هؤلاء الصاحب بن عباد في فارس والوزير المهلبي في بغداد وأبو الفضل بن حنزابة في مصر ، فإن هؤلاء لم يدخروا وسعاً في الكيد له ، وإثارة الشعراء والعلماء والملوك عليه ، والبحث والتنقيب عن مساوئه هم وأشياعهم .

وتوفر العلماء والأدباء على دراسة شعره ، ورأى فريق منهم الحق في جانبه فتولى الانتصار له والردّ على خصومه الذين أرادوا أن يطمسوا نجوم السماء بأكفهم ويطفئوا نور الله بأفواههم ، فظهر من هذا وذاك ما كان في كلامه من الآيات المعجزة والروائع الباهرة ، واطلع عليها من قصر فهمه عن إدراكها ، فازدادوا إعجاباً بأدبه وحسداً لفضله وتنقيباً عن مساوئه ومثالبه ، وازداد الآخرون إظهاراً لمحاسنه ومناقبه .

وقلما وجد الباحث ناحيةً من نواحي هذا الشاعر الفذّ ، إلا وقد قتلها العلماء بحثاً وأشبعوها تمحيصاً وتحقيقاً ، ما خلا ثقافته ومصادرها فإن حظهما من ذلك قليل عند المتقدمين وأقل من القليل عند المتأخرين ، لا ينقع غلة ولا يشفي علة ، وهو على قلته محفوف من الغموض والشكوك بحجب مصمتة لا تنفذ منها أشعة البحث ، محاط بحواجز من التناقض في الأقوال والتضارب في الآراء التي نقلها المتأخر عن المتقدم وطبع فيها الآخر على غرار الأول من غير تمحيص ولا تدبر ، فكانت الحقيقة فيها أخفى من السهى وأغمض من السر في الضمير .

ثقافة المتنبي

مبدؤها ، منتهاها ، مكان كل منهما

لقد تصدى كثير من العلماء والأدباء لذكر المتنبي وأطالوا القول في تنبئه ومدحه بجودة شعره ، وانتشاره واطلاعه على العرب وما شاكل ذلك ، ولكن منهم من أعرض عن التصدي لثقافته ، ومنهم من أوجز فيها إيجازاً مخلاً .

وممن ذكره من هؤلاء ابن الأنباري في نزهة الألباء في طبقات الأدباء ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والبدبعي في الصبح المنبي ، والأصفهاني في إيضاح المشكل ، والثعالبي في يتيمة الدهر في نحو تسعين صفحة ، وابن تغري بردي في النجوم الزاهرة ، وابن العماد في شذرات الذهب ، وابن خلكان في وفيات الأعيان ، والعثماني في معاهد التنصيص ، وابن نباتة في سرح العيون ، والبغدادي في خزانة الأدب ، وأبو الفداء وابن الوردي في تاريخيهما ، وابن حجر في لسان الميزان ، والخطيب في تاريخ بغداد ، والعكبري في شرح ديوانه ، والواحدي كذلك .

وليس في كلام هؤلاء الاعلام ما ينير السبيل للباحث عن ثقافة المتنبي إلا وميض يسير نسير على ضوئه الضئيل في هذا المجهل القاتم ، وإن كان الجمع بين ما فيه من التناقض أشق من عقد شعيرة على الاجذم ، وأصعب من الجمع بين الماء والنار .

ويمكن أن يلخص كلام هؤلاء القوم ومن احتذى على مثالهم من بعدهم ، بأن فريقاً منهم زعم أن أبا الطيب وُلد في الكوفة وفيها ترعرع ، واختلف الى كتّاب فيه أولاد أشراف الكوفة ، فتعلم دروس العربية لغةً وشعراً وإعراباً ، وخرج الى البادية ، فصحب الاعراب ، وعاد بعد سنين بدوياً قحاً ، ونظر في أيام الناس ، وأكثر ملازمة الوراقين ، فكان علمه من دفاترهم ، وقال الشعر صبياً ، ووقع في صغره الى رجل بالكوفة من المتفلسفة يكنى أبا الفضل فهوّسه وأضله كما ضلّ .

وزعم فريق آخر أنه ، وإن كان كوفيّ المولد ، شاميّ المنشأ سافر به أبوه الى بلاد الشام وهو صبيّ ، فلم يزل ينقله من باديتها الى حضرها ومن مدرها الى وبرها ، ويسلمه الى المكاتب ، ويردده في القبائل ، واشتغل فيها في فنون الادب ومهر فيها وتضلع من علم اللغة ؛ وأنه تخرّج بها ومنها خرج نادرة الفلك .

ومنهم من جمع بين الامرين : تعلمه بالكوفة وتعلمه بالشام .

وفي هذه الاقوال على تباينها شيء من الحقيقة ، ولكنه منتشر في تضاعيف الكلمات انتشار ذرات الذهب في معدنه بين التراب والصخر ، لا يتسنى أن يصاغ منها شيء من الحلي ، حتى يحصلها المعدِن ، ثم يخلصها وينقيها ، ثم يؤلف بينها ، ثم يصهرها ، ثم يفرغها بعد ذلك في القالب الذي يريده .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وهذا ما نريد معالجته في هذه الكلمة الموجزة في الوقت الموجز .

قد رأينا هؤلاء العلماء اتفقت كلمتهم على أنه ولد في الكوفة واختلفت في المكان الذي تثقف فيه ، وليس في أقوالهم ما يكشف القناع عن وجه الحقيقة الناصعة ، إذ لم يبين فيها ما درسه في الكتاب من اللغة والشعر وغيرهما ، ولا ما هوّسه به أبو الفضل الضال المضل ، كما لم يبين من هم الاعراب الذين صحبهم ، والوراقون الذين لازمهم ، والعلماء الذين لزمهم في الكوفة أو في الشام ، ولا ما هو الذي أخذه عن كل منهم ، ولا ما تعلمه في مكاتب الشام ، ولا ، ولا .

وكل ما ذكروه مما أسلفنا ذكره وأمثاله مما ضربنا عنه الذكر صفحاً كلمات مجملة يقول مثلها المادح أو القادح ليقضي منها حاجة في نفسه ، ولكن الباحث الذي يتوخى البسط والإبانة والتفصيل لا يستطيع أن يتخذها أساساً يقيم عليها صروح بحثه .

وقد يخيل إليّ أن أقرب شيء تسكن اليه النفس في هذا أن يقال : إن المتنبي درس في الكوفة اللغة ، وفيها تثقف ونال الشعر الجيد ، ولكن لم يشتهر كثيراً ، ثم خرج الى الشام سنة ٣٢١ ، وكان عمره إذ ذاك ثماني عشرة سنة ، فاطلع على ثقافة أهلها ، واجتمع بطائفة من علمائها وأدبائها ، وتابع الدراسة ، فازدادت ثقافته وغزرت مادته واستحصد شعره وحصف عقله وشاع ذكره ونضج أدبه .

والدليل على هذا أمران ، الاول : أن المؤرخين رووا له أبياتاً قالها في صباه في المكتب وهي :

أبلى الهوى أسفاً يوم النوى بدني ... وفرق الهجر بين الجفن والوسن
روح تردد في مثل الخلال إذا ... أطارت الريح عنه الثوب لم يبن
كفى بجسمي نحولاً انني رجل ... لولا مخاطبتي إياك لم ترني

ورووا له قصيدة مدح بها رجلاً يقال له أبو الفضل ، وقد أراد أن يستكشفه عن مذهبه ، ولا أعلم إن كان أبو الفضل هذا هو الذي هوّسه وأضله أم غيره ، يقول فيها متغزلاً :

غصت على نقوى فلاة نابت ... شمس النهار تقل ليلاً مظلما
لم تجمع الاضداد في متشابه ... إلا لتجعلني لغرميّ مغنما

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ويقول مادحاً :

يا أيها الملك المصفى جوهراً من ذات ذي الملكوت أسمى من سما
نور تظاهر فيك لاهوتية فتكاد تعلم علم ما لن تعلما

* * *

كبر العيان علي حتى إنه صار اليقين من العيان توهما
يا من لجود يديه في أمواله نقم تعود على اليتامى أنعما

وذكروا له قصيدة قالها في صباه حين اجتاز برأس عين سنة ٣٢١ ، وذلك أن سيف الدولة أوقع بعمرو بن حابس من بني أسد وبني ضبة ورباح من تميم ، فمدحه بها ولم ينشده إياها ، فلما لقيه دخلت في جملة المديح ، مطلعها :

ذكر الصبا ومراتع الآرام جلبت حمامي قبل يوم حمامي
دمن تكاثرت الهموم عليّ في عرصاتها كتكاثر اللؤام

وفيها يقول متغزلاً :

فكأن كل سحابة وكفت بها تبكي بعيني عروة بن حزام
ليس القباب على الركاب وإنما هنّ الحياة ترحلت بسلام
ليت الذي حلق النوى جعل الحصى لخفافهن مفاصلي وعظامي

ويتخلص الى المدح فيقول :

لم يتركوا لي صاحباً إلا الاسى وذميل دِعبلة كفحل نعام
وتعذر الاحرار صير ظهرها إلا اليك علي فرج حرام
أنت الغريبة في زمان أهله ولدت مكارمهم لغير تمام
ملك زُهت بمكانه أيامه حتى افتخرن به على الايام
وتخاله سلب الورى أحلامهم من حلمه فهم بلا أحلام

ويقول فيمن عصوا الامير :

فتركتهم خلل البيوت كأنما غضبت رؤوسهم على الاجسام
أحجار ناس فوق أرض من دم ونجوم بيض في سماء قتام

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وروا له شعراً كثيراً قاله في صباه فيه من عيون الكلام وروائع الشعر ما يندر مثله في غير كلام الفحول .

وهذا الشعر المذكور وأمثاله شعر محكم التأليف مصقول الديباجة صحيح المعنى مشتمل على شيء من مصطلحات العلوم كجمع الأضداد في متشابه والغرم والمغنم والجوهر واللاهوتية والعيان واليقين والتوهم ونحوها ، وعلى الإشارة إلى رجل اشتهر في التاريخ بحبه وهو عروة بن حزام ، وعلى كثير من الطباق والجناس وغيره من صناعة البديع كالهوى والنوى والغرم والمغنم والنقم والأنعم ونحوها ، وعلى ضروب من المجاز اللطيف والتشبيه الرائع والكنايات الجميلة وما شاكل ذلك مما لا يتسنى لشاعر أن يأتي بمثله إلا بعد أن يمهر في الشعر ويحتنك .

ولئن كان فيما قاله المتنبي من الشعر بعد هذا ما هو أجود منه وأعلى فإن كل شاعر لا يكون شعره في أول عهده بالشعر أعلى من شعره بعد أن يتمرس به عهداً طويلاً ولا تبلغ باكورة شعره في قريحة شبابه ما يبلغه شعره بعد أن يزاول الشعر ويعالجه بعد أن ينضج أدبه ويستحصف عقله وتكمل ثقافته .

وبهذا يتضح لنا أن قول الثعالبي وابن خلكان ومن ترسم خطاهما أنه قدم الشام صبياً وجال في أقطارها ودخل المكاتب وتخرج بها الخ .. قول لا يؤيده الواقع ولا تقره الحقيقة .

الأمر الثاني : ما رواه المؤرخون من أنه كان يصحب ديواني أبي تمام والبحتري حتى إنه لما قتل وجدا معه بخطه وعلى الحواشي علامة كل بيت أخذ معناه وسلخه ، وأنه كان له دفاتر كان يصحبها حيثما رحل وكان كثير الإشفاق عليها لأنه انتخبها وأحكمها قراءة وتصحيحاً ، وأنها وجدت معه حين قتل .

وهذا دليل صريح على أنه ما فارق الدراسة والمطالعة حتى فارق الحياة .. وكان فوق هذا يخالط جماعة من الشعراء والأدباء والعلماء في بلاط سيف الدولة وغيره .

وهذا القدر كاف في الدلالة على أن المتنبي ابتدأ تثقفه وقوله الشعر الجيد في الكوفة وأتم الأمرين معاً في بلاد الشام ومنه يتبين لنا المكان الذي ابتدأت فيه ثقافته والمكان الذي تمت فيه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تقسيم ثقافته ومصادرها

ومن المفيد أن نقسم ثقافة المتنبي إلى أقسام يتميز كل واحد منها من الآخر ليسهل ضبطه وتفرقته من قسيميه وإن كان بعضها مشتركاً مع غيره في بعض الوجوه، ثم نبين مصدر كل منها بقدر ما سمحت لنا النصوص فهي تنقسم إلى ثلاثة أقسام لغوية وأدبية وعلمية ولكل واحد من هذه الأقسام الثلاثة مصدر مجهول ومصدر معلوم؛ أما المصدر المجهول فتشترك فيه الأقسام الثلاثة على السواء، وهذا المصدر لم يسعف البحث بمعرفته معرفة تكشف النقاب عن حقيقته، وذلك ما تقدم ذكره من مثل دخوله الكتاب في الكوفة والمكاتب في الشام (إذا صحّ ذلك) . وخروجه إلى البادية وصحبته الأعراب وملازمته الوارقين ودفاتره ولزومه العلماء وبما شاكل هذا من المصادر المبهمة المجهولة التي لم يبين ما نعلمه وما أخذه من كل منها .

ولكل قسم مصدر آخر معلوم تحته أنواع متعددة أو مصادر أخرى معلومة يتميز بها من قسيميه وقد يشارك غيره في بعضها .

ثقافته اللغوية

من مصادرها كلام الشعراء الذين زعموا أنه أخذ معانيه منهم كامرئ القيس والنابغة وزهير وغيرهم ممن سيأتي ذكرهم في ثقافته الأدبية .

ومنها أنه وجد في أشعاره وأخباره مايدل على تضلعه باللغة وإطلاعه على أسرارها ودقائقها وغريبها اطلاعاً حمله على الإعجاب بنفسه والتمرد على بعض مذاهب النحاة واحتقاره مثل ابن خالويه في مجلس سيف الدولة وأبي الفرج الأصفهاني وغيره من الأدباء والعلماء في مجلس الوزير المهلبي وأبي علي الآمدي شيخ الجماعة في حضرة الوزير أبي الفضل بن خنزابة في مصر .

فمما ورد في شعره قوله :

إذا كان ما تنويه فعلاً مضارعاً مضى قبل أن تلقى عليه الجوازمُ

وقوله :

أمضي إرادته فسوف له قدٌ واستقرب الأقصي فثمّ له هُنا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قوله :

وكان ابنا عدو كاثراه له ياء حروف أنيسيان

وقوله :

حولي بكل مكان منهم خلق تخطي إذا جئت باستفهامها بمن

ومما روي في أخباره : أن أبا علي الفارسي قال له يوماً : كم من الجموع على فِعلى ، فقال في الحال : حِجلى وظِربى . (حجلى جمع حجلة أو اسم جمع لها لنوع من الطير وظِربى جمع ظِربان ، وهو دويبة شبه الكلب أصم الأذنين طويل الخرطوم أسود السراة أبيض الظهر كثير الفسو منتن الرائحة) . قال أبو علي : فطالعت كتب اللغة ثلاث ليال على أن أجد لهذين الجمعين ثالثاً فلم أجد . وقال في المتنبي : ما رأيت رجلاً مثله في معناه .

وأن الحاتمي لما ناظر المتنبي في بغداد ، سأله : ما الفرق بين التقديس والقَدّاس والقادس ، فقال له المتنبي : أي شيء غرضك في هذه المذاكرة بل المهاترة ، ثم قال له : التقديس التطهير ولذلك سمي القدس قدساً لاشتماله على الذي يكون فيه الطهور وكل هذه الأحرف تؤول إليه ، فقال الحاتمي : ما أحسبك أمعنت النظر في كتب اللغة وعلوم العرب ولو تقدم منك مطالعة لها ما جمعت بين معاني هذه الكلمات مع تباينها لأن القَدّاس حجر يلقى في البئر ليعلم غزارة ما فيه من قلته ، والقُداس يشبه الجمان يعمل من الفضة ، والقادس السفينة .

وإذا تأملنا جواب المتنبي على إيجازه وعلى أنه جواب على سؤال متعنت فوجئ به . تبين لنا أنه جواب عالم باللغة مطلع على أسرار وضعها واشتقاقها ، فإن علماء اللغة قالوا : القُدُس الطهر والبيت المقدّس لأنه يتطهر فيه من الذنوب ، والتقديس التطهير ، والقُدّوس الطاهر ، ونقدّس لك نطهر أنفسنا لك ، والأرض المقدّسة المطهرة ، وروح القُدُس روح الطهارة أي خلق من طهارة ، ولا قدّست أمة لا طهرت ، والقدّس والقُدُس قدح يتطهر به ، والقدّس السطل لأنه يتطهر به ، ومن أسماء مكة قادس والمقدسة لأنها تقدس من الذنوب أي تطهر ونحو ذلك ، ولا يضير المتنبي أن لا يعرف معنى القادس والقُداس والقَدّاس ، فإن كثيراً من أئمة اللغة توقفوا على معان لا يعرفونها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وما عرف التاريخ رجلاً وعى صدره معاني اللغة كلها حتى العرب أنفسهم ، فإن قرشياً قال له ملك حمير (ثِبْ) فلم يفهم معناه بلغة حمير فوثب فمات ، وإن عمر ابن الخطاب توقف في معنى الأبّ ؛ فإن كثيراً من أئمة اللغة جهلوا معاني بعض الكلمات وأخطأوا في تفسير بعض آخر . فالكسائي لم يفرق بين معنى عييت وأعييت حتى نُبِّه الى ذلك ، وأبو عبيدة سئل عن أسماء أعضاء الفرس فتوقف وقال لست بيطار . وكفى المتنبي فضيلة أنه لم يهرف بما لم يعرف ولم يجب بغير ما يثق بعلمه ، على أن ما ذكره الحاتمي في تفسير القَدّاس لم أرَ من ذكره من أئمة اللغة ، وإنما قالوا : هو حجر يوضع في حوض الإبل أو وسطه اذا غمره الماء رويت الإبل ، أو يطرح فيه يقدّر عليه الماء يقتسمونه بينهم ، أو حصاة يقسم بها الماء في المفاوز .

والحاتمي إنما تطوع بمناظرة المتنبي ليظهر على أكتافه ، ويتحدث الناس أنه ظهر عليه وأفحمه ، ولينقع من ذلك غلة معز الدولة ووزيره المهلبي اللذين توقعا من المتنبي أن يمدحهما فترفع عن ذلك ، والحاتمي على ضلفه وتعنته لم يستطع أن يجحد فضل أبي الطيب وتفوقه وتفرده ، فقد قال في رسالته التي ضمنها مناظرة المتنبي : فلما علوته بالكلام قال : يا هذا اللغة مسلمة لك ، فقلت : كيف تسلمها وأنت أبو عذرتها وأولى الناس بها وأعرفهم باشتقاقها والكلام على أفانينها ، وما أحد أولى بأن يسأل عن غريبها منك ؛ ثم قال في موضع آخر منها : ورأيت له حق التقدم في صنعته فطأطأت له كتفي .

هذه شهادة خصم لدود وعدو شديد للمتنبي « والفضل ما شهدت به الأعداء » .

وقال ابن خلكان فيه : إنه كان من المكثرين من نقل اللغة والمطلعين على غريبها وحوشيها ، وإنه لا يسأل عن شيء إلا واستشهد فيه بكلام العرب . وقال الاصبهاني في إيضاح المشكل : وجملة القول فيه أنه كان من حفاظ اللغة ورواة الشعر ، وكل ما في كلامه من الغريب المصنف سوى حرف واحد هو في كتاب الجمهرة وهو قوله : « ... تطوى المجلحة العقد » ، وهذا من بيت وهو :

وأمضي كما يمضي السنان لطيتي وأطوي كما تطوى المجلحة العقدُ

يريد بالمجلحة الذئاب الجريئة الشديدة الماضية ، وأطوي من الطوى وهو الجوع .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والعقد جمع أعقد وهو الذي في ذنبه عَقَد أي التواء ، وذئب أعقد معوجّ .

وقال أيضاً : كان المتنبي يغشى أبا الفضل بن العميد كل يوم ، وكان أبو الفضل يقرأ عليه ديوان اللغة الذي جمعه ويتعجب من حفظه وغزارة علمه .

وديوانه طافح بالابيات والكلمات الدالة على غزارة مادته وسعة اطلاعه وأخباره مكتظة بالادلة على هذا .

وكان أبو الطيب فوق هذا صنعاً ماهراً في صوغ الكلمات وتأليفها، لبقاً بارعاً في تخير ما يلائم منها كل غرض ، حاذقاً في وضع كل كلمة في موضعها .

قال ابن فورَجّة أو فوزَجة : قرأت على أبي العلاء المعري، ومنزلته في الشعر ما قد علمه من كان ذا أدب ، فقلت له : ما ضرّ أبا الطيب لو كان قال مكان هذه الكلمة كلمة أخرى أوردتها ، فأبان لي عوار [1] الكلمة التي ظننتها ، ثم قال : لا تظنن انك تقدر على إبدال كلمة واحدة من شعره بما هو خير منها فجرب إن كنت مرتاباً ، وها انا ذا أجرب هـذا العهد فلم اقدر ، وليجرب من لم يصدق يجد الامر كما قلت . وشهادة ابي العلاء هذه تعدل شهادة أمة بأسرها او تزيد ، وإنما يقدرها حق قدرها من عرف من هو ابو العلاء ، وما هو في اللغة والادب والشعر ، وإن كانت لا تخلو من شيء من المبالغة التي سببها حب ابي العلاء المتنبي وتواضعه .

ثقافته الادبية

ولثقافته الادبية غير ما سبق ذكره من المصادر مصادر أخرى منها اقوال الشعراء الذين زعم حساده انه اغار على معانيهم وسلخها، ثم تصرف فيها بما شاء من زيادة ونقص وتوليد ونقض وقلب ، وهؤلاء الشعراء كثيرون منهم : امرؤ القيس ، والافوَه الاودي ، والنابغة الذبياني ، وزهير ، والحصين بن الحُمام المري ، وعنترة ، وذوالإصبع العدواني ، والاعشى الاكبر ، وعروة بن الورد ، وحاتم الطائي ، وربيعة بن مرداس ، وابو صخر الهذلي ، والمثقب ، وعروة بن عشبة ، والعوام بن عمرو ، واوس بن حجر ، وابو جويرية العبدي ، وخفاف بن غصن البرجمي ، وحطائط بن يعفر ، والحزين الدؤلي

(١) العوار بالفتح العيب وقد يضم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقيس بن الخطيم ، وقيصر الاسد ، وعين بن مالك ، وعلاقة بن عربي ، ولبيد ، وإياس الكلابي ، ومعاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب ، وذؤيب بن كعب التميمي ، وعبد يغوث ، ومضرس بن ربعي ، والحادرة ، وجابر بن حباب ، وتأبط شراً ، وسويد ابن ابي كاهل ، وأمية بن ابي الصلت ، وخداش بن زهير ، وعنترة بن الاخرس ، وزياد البدي ، وطرفة ، والنابغة الجعدي ، وحسان بن ثابت ، وعمرو بن معد يكرب ، والعباس بن مرداس ، والاهتم بن سنان ، وعلقمة بن اسوى ، وأحيحة بن الجُلاح ، والفرزدق ، وجرير ، والاخطل ، وكثير ، والطرماح ، وعمر بن ابي ربيعة ، والراعي وذو الرمة ، وقيس بن ذريح ، ويزيد بن الطثرية ، وعقيل بن غفلة ، والكميت ، والجلاح ، واعشى باهلة ، ونصر بن سيار ، وسالم بن وابصة ، ومتمم بن نويرة ، والبعيث ، والاعور الشني ، وعدي بن الرقاع ، والمؤرج بن عمر ، وابو العميثل ، والحطيئة ، وزياد الاعجم ، وعمران بن حطان ، وعبد الرحمن بن دارة ، وعميرة ابن جعيل ، وعمر بن الاهتم ، ورؤبة ، وعبد الله بن الزبير الاسدي ، وثابت بن قطنة العتكي ، وعبد الله بن معاوية ، وابن الرقيات ، وهدبة بن الخشرم ، وزفر بن الحارث ، وابن هرمة ، وبشار ، وحماد ، والعتابي ، وأبو العتاهية ، ومروان بن ابي حفصة ، وابوالشيص ، وأبو نواس ، وأبو تمام ، والبحتري ، وابن الرومي ، والعباس بن الأحنف ، وابن المعتز ، وأبو هفان ، وابن الخياط ، وعبد الله بن طاهر ، وأشجع السلمي ، وعلي ابن جبلة ، وبكر بن النطاح ، والناشئ الأكبر ، وعبد الله بن محمد المهلبي ، وموسى ابن جابر الحنفي ، وأبو دلف ، ومسلم بن الوليد ، وديك الجن ، ودعبل ، ومحمود الوراق وعلي بن الجهم ، ويعقوب بن الربيع ، ومحمد بن وهيب ، ومنصور النمري ، وأبو سعيد المخزومي ، وأبو عطاء السندي ، وأحمد بن أبي فنن ، والعتبي ، ومنصور الفقيه ، وابن المعذل ، والخليع ، وعلي بن الخليل ، والخبز أرزي ، والحمدوني ، وابن الناصر ، وخالد الكاتب ، والخزيمي ، وأحمد بن طاهر ، وسعيد بن حميد ، وأبو طاهر ، وإبراهيم ابن المهدي ، ويزيد المهلبي ، ويحيى بن زياد ، والسيد ، والمخيم الراسبي ، وصالح بن عبد القدوس ، وسلم الخاسر ، وحمزة بن بيض ، والطرمي ، وأبو حفص الشطرنجي ، وإسحاق بن خلف ، والناجم ، ومنصور بن بسام .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

و كثير من الشعراء الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين والمولدين ممن سُموا وممن لم يُسموا .

زعموا أن أبا الطيب أغار على معانيهم فانتزعها ، أو أغار على من أغار عليها فانتزعها منه .

ومن مصادر ثقافته الأدبية أقوال الحكماء ، فقد زعم فريق من المولعين بالإغراب من شراح ديوانه وغيرهم ، أنه أخذ كثيراً من معاني الحكماء وجعلها في شعره ، وذلك مثل قوله :

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسامُ

قالوا : إنه أخذه من كلام أرسطاطاليس : إذا كانت الشهوة فوق القدرة كان هلاك الجسم دون بلوغ الشهوة . وقوله :

أرى أناساً ومحصولي على غنم وذكر جود ومحصولي على الكلم

من قول الحكيم : من كانت همته الأكل والشرب والنكاح فهو بطبع البهائم ، لأنا نعلم أنها متى خُلي بينها وبين ما تريده لم تفعل شيئاً غير ذلك . وقوله :

ورُبّ مالٍ فقيراً من مروّته لم يثر منها كما أثرى من العدم

من قول الحكيم : من أثرى من العدم افتقر من الكرم ، وقوله :

وشبه الشيءُ منجذب إليه وأشبهنا بدنيانا الطغام

من كلام الحكيم : الأشكال لاحقة بأشكالها ، كما أن الأضداد مباينة لأضدادها . وقوله :

ذلّ من يغبط الذليل بعيش رُب عيش أخف منه الحِمام

من كلام الحكيم : إذا لم تنصرف النفوس في شهواتها : فحياتها موت ووجودها عدم . وقوله :

كل حلم أتى بغير اقتدارٍ حجة لاجئٌ إليها اللئام

من كلام الحكيم : الفرق بين الحلم والعجز أن الحلم لا يكون إلا عن قدرة ، والعجز لا يكون إلا عن ضعف . وقوله :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من كلام الحكيم : العاقل لا يساكن شهوة الطبع لعلمه بزوالها ، والجاهل يظن أنها خالدة وهو باقٍ عليها ، فهذا يشقى بعلمه وهذا ينعم بجهله . وقوله :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراقَ على جوانبه الدم

من كلام الحكيم : الصبر على مضض الرياسة ينال به شرف النفاسة . وقوله :

الظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

من كلام الحكيم : الظلم من طبع النفس ، وإنما يصدها عن ذلك إحدى علتين : إما علة دينية أو علة سياسية كخوف الانتقام . وقوله :

هوّن على بصر ما شق منظره فإنما يقظات العين كالحلم

من كلام الحكيم : كرور الأيام أحلام ، وغذاؤها أسقام وآلام . وقوله :

سبحان خالق نفسي كيف لذّتها فيما النفوس تراه غاية الألم

من قول الحكيم : النفس الشريفة ترى الموت بقاء لدركها أماكن البقاء ، وهذه حالة تعجز الخلق عن ركوبها . وقوله :

كثير حياة المرء مثل قليلها يزول وباقي عمره مثل ذاهب

من قول الحكيم : آخر حركات الفلك كأوائلها ، وناشئ العالم كلاشيه في الحقيقة لا في الحس . وقوله :

فهذه الأرواح من جوّه وهذه الأجساد من تربه

من قول الحكيم : اللطائف سماوية والكثائف أرضية ، وكل عنصر عائد الى عنصره . وقوله :

تبخل أيدينا بأرواحنا على زمانٍ هنّ من كسبه

من قول الحكيم : إذا كان نشوء الأرواح من كرور الأيام فمالنا نعاف رجوعها الى أماكنها . وقوله :

وغاية المفرط في سلمه كغاية المفرط في حربه

من قول الحكيم : آخر إفراط التوقي أول موارد الخوف . وقوله :

أرى كلنا يبغي الحياة بسعيه حريصاً عليها مستهاماً بها صبّا
فحب الجبان النفس أورده التقى وحب الشجاع النفس أورده الحربا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من قول الحكيم : النفس المتجوهرة تأبى مقارنة الذل جداً وترى فناءها في طلب العز حياتها ، والنفس الدنية بضد ذلك . وقوله :

إلف هذا الهواء أوقع في الأنـــفس أن الحمام مر المذاق

من قول الحكيم : النفوس البهيمية تألف مساكنة الأجساد الترابية ، فلذلك تصعب عليها مفارقة أجسامها ، والنفوس الصافية بضد ذلك .

وأمثال هذا كثير في شعره ، مما زعموا أنه اقتبسه من كلام الحكماء ، بين حكيم معلوم سمي وبين حكيم مجهول لم يسم .

ولو استطاع خصومه لنسبوا كل جيد من معانيه الى غيره من الشعراء والحكماء ، وإذا صح كل ما قيل فأبو الطيب أوسع الشعراء اطلاعاً على كلام الفحول من حكماء وشعراء ، وأبصرهم بالمعاني الجيدة ، وأبرعهم في انتقائها ، وأقدرهم على التصرف بها زيادة ونقصاً وتوليداً وقلباً ، وأحذقهم صوغاً وتأليفاً .

وقد شهد له فريق كبير من خصومه بتفوقه في مواطن كثيرة على من زعموا أنه أخذ منه في قوة السبك ، وروعة الألفاظ ، وجمال المعاني .

ولو ادعي مدع أن هـذا الحكيم المعلوم أو المجهول خلقه حساد المتنبي ونسبوا إليه تلك الأقوال ليسلبوه محاسنه ، لكان ذلك غير بعيد ، ولشهد له ما في أقوال أولئك الحكماء من الركاكة في التأليف ، والتقصير عن الإحاطة بالمعنى ، وإن جاء بعضها مسجعاً .

ومن أمعن النظر في كلام أبي الطيب ، وكلام ذلك الحكيم يتضح له في مواضع متعددة أن لا علاقة بين الكلامين إلا من حيث اشتراكهما ببعض الالفاظ أو بطرف من المعنى ، وأن المعنى في شعر أبي الطيب أجل وأتم منه في كلام الحكيم ، والشواهد على هذا كثيرة ، منها قوله :

كلما أنبت الزمان قناةً ركب المرء في القناة سنانا

قالوا : إنه من قول الحكيم : من صحة السياسة أن يكون الإنسان كلما ظهرت سنة عمل بها بحسب السياسة .

وعند التأمل لا يجد الباحث بين الكلامين رحماً واشجةً ، ولا نسباً جامعاً ، ولا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

رابطةً بينهما إلا تعلق كل منهما بعمل الإنسان ، ولكن هذا العمل مختلف في كليهما جدّ الاختلاف من حيث الغاية والقصد والسبب والعلة . وكذلك قوله :

دع النفس تأخذ وُسعها قبل بينها فمفترق جاران دارهما العمر

قالوا : إنه منقول من قول الحكيم : مَن قصر عن أخذ لذاته عدمها وعدم صحة جسمه .

والفرق بين المعنيين من حيث الصحة والجمال كالفرق بين اللفظين من حيث البلاغة وقوة الاسر ، وصفاء الديباجة ؛ فإن المتنبي يقول : أعطِ نفسك حظها قبل أن تموت ، فإن الحياة لا تدوم . والحكيم يقول : لا تقصر عن أخذ لذتك فإنك تعدم تلك اللذة وتعدم صحة جسمك . ولا علاقة لاحد هذين المعنيين بالآخر إلا من جهة الحض على التمتع باللذة ، ولكن علة ذلك مختلفة في كليهما ، واللامر المترتب على المخالفة مختلف فيهما أيضاً .

وهذا شأن أكثر الابيات التي زعموا أنه أخذها من قول الحكماء ، وكثير من الابيات التي ادعوا أنه سلخها من معاني الشعراء ، كقوله :

حسان المثني ينقش الوشي مثله إذا مسن في أجسامهن النواعم

قالوا إنه من كلام امرئ القيس :

من القاصرات الطرف لو دبّ محول من الذرّ فوق الإتب منها لأثرا

وقد رأيت نحواً من ثلاثين شاعراً بين امرئ القيس والمتنبي أخذوا هذا المعنى ولم يستطع أحد أن يجود فيه بعد صاحبه مثل المتنبي ، وكذلك قوله :

له عسكر خيل وطير إذا رمى بها عسكراً لم يبق إلا جماجمه

سحاب من العقبان يزحف تحتها سحاب اذا استسقت سقتها صوارمه

وقوله في وصف جيش :

تمرّ عليه الشمس وهي ضعيفة تُطالعه من بين ريش القشاعم

اذا ضوؤها لاقى من الطير فرجة تدوّر فوق البيض مثل الدراهم

قالوا إنه من قول أبي تمام :

وقد ظللت عقبان لِواته ضحى بعقبان طير في الدماء نواهل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أقامت مع الرايات حتى كأنها من الجيش إلا أنها لم تقاتل

وأصل هذا المعنى للأفوه الاودي أخذه منه النابغة الذبياني فزاد فيه زيادة حسنة ثم تتابع عليه شعراء كثيرون مثل أبي نواس ومسلم بن الوليد وغيرهما ثم جاء أبو تمام فزاد فيه ما زاده حسناً وجاء المتنبي فزاد فيه زيادة حسنة ولم يأخذ معنى أبي تمام كله بل وافقه في أصل المعنى المأخوذ عن النابغة والافوه ثم فارقه في بقية المعنى وهو على غاية من الجودة ، ورحمة الله التي وسعت طائفة كبيرة من الشعراء الذين ألموا بهذا المعنى ولم يؤاخذوا به لا نضيق عن أبي الطيب .

وكان أبو الطيب سئل مرة عن اتفاق الخواطر فقال الشعر ميدان والشعراء فرسان فربما اتفق توارد الخاطر كما يقع الحافر على الحافر . وهذا مما لا ريب فيه فانا قد نرى شاعراً وافق غيره في معنى من غير أن يطلع على شعره ونرى أيضاً شاعراً اعجمياً قد يوافق شاعرا عربيا وبالعكس من غير أن يعلم أحدهما لغة الآخر فضلا عن أن يطلع على شعره ويقتبس من معناه .

وليس القصد من كلامنا هذا أن نبرئ المتنبي من السرقة للمعاني ، وانما نريد أن نبين أن كل ما نسب اليه من ذلك غير صحيح ، وأن دعوى خصومه مبالغ فيها ، وأن غيره شاركه في مثل هذا ولكن لم يكن له من الخصوم والمنتقدين ما كان للمتنبي .

وبعد كل ما تقدم فإننا لا ننكر أن المتنبي كان كما قال الخالديان كثير الرواية جيد النقد ، وقد أسلفنا قول ابن خلكان : إنه كان من المكثرين من نقل اللغة والمطلعين على غريبها وأنه لا يسأل عن شيء إلا واستشهد فيه بكلام العرب ؛ ولكننا ننكر أن يكون كل معانيه أو جلها مأخوذاً من غيره .

وأغرب من كل ما سبق ذكره ما ذكره بعض خصومه المتعنتين المنقبين عن سرقاته : وهو أن قصاراً كان يعمل على شاطئ نهر وكان يرى كل يوم كركياً يجيء فيلتقط من الحمأة دوداً ويقتصر في القوت عليه ، ثم رأى الكركي يوما صقراً ارتفع في الجو وانقض على حمامة فاصطادها وأكلها ، فقال الكركي : ما لي لا أصطاد الطيور كما يصطاد هذا الصقر وأنا أكبر منه جسما ثم ارتفع في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الجو وانقض على حمامة فأخطأها وسقط في الحمأة فتلطخ رأسه وتلطخ ريشه ، ولم يمكنه أن يطير فأخذه الصياد ورجع إلى منزله فاستقبله رجل فقال ما هذا فقال : كركي يتصقر ، فسمع المتنبي هذه الحكاية فأخذ منها معنى قوله :

ومن جهلت نفسه قدره رأى غيره منه ما لا يرى

وهذا البيت من قصيدة قالها حين هرب من مصر ووصل الى الكوفة مطلعها :

الا كل ماشية الخيزلى فدا كل ماشية الهيذلى

يصف فيها رحلته ما بينهما ولا نعلم في أي موضع سمع هذه الحكاية ، وقد كان فاراً من كافور يختبئ في مكان بعد آخر وليس يصحبه غير غلمانه ، فمن قص عليه ذلك ومن رواه عنه ؟ .

وهذا يؤيد ما قلناه أن خصومه لو استطاعوا لنسبوا كل معنى جيد في شعره إلى غيره ، ولذلك قال ابن نباتة في سرح العيون : وهذا من نوادر المنقبين على سرقات المتنبي ، ومن نادر التعصب على هذا الرجل الفاضل المحسود .

ثقافته العلمية ومصادرها

وأما ثقافته العلمية فهي أشد غموضاً من سابقتيها وأخفى طريقاً وأقل عناية في كلام المتقدمين .

وقد كان أبو الطيب في عصر زخرت فيه بحور العلم وانتشرت كتب الفلسفة وفشت فيه آراء الحكماء والفلاسفة والزنادقة ، وأصحاب الأهواء والنحل بين طبقات العامة والخاصة .

ومن استقرى كلامه ، وجد فيه كثيراً من الآراء والمنازع الفلسفية والإلماع إلى بعض المذاهب ، وما يعتقده بعض الفرق في الأفلاك العلوية ونحو ذلك كقوله :

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم إلا على شجب والخلف في الشجب

فقيل تخلص نفس المرء سالمة وقيل تشرك جسم المرء في العطب

ومن تفكر في الدنيا ومهجته أقامه الفكر بين العجز والتعب

فإن فيه إشارة إلى اختلاف الكلمة في فناء الجسم والروح معاً ، أو في فناء الجسم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وحده ، وكلاهما قول لبعض الحكماء ، وأبو الطيب وقف بين العجز والثبت ولم يصرح بما ارتضاه من القولين على ما في كلامه من احتمال وقبول للتأويل .

وقوله من قصيدة يعزي بها عضد الدولة بعمته :

نحن بنو الموتى فما بالنا ... نعاف ما لابد من شربه
تبخل أبدينا بأرواحنا ... على زمان هن من كسبه
فهذه الأرواح من جوه ... وهذه الأجسام من تربه

فإن فيه إشارة إلى مذهب القائلين ان الروح جوهر لطيف يصعد إلى الجو بعد مفارقة الجسم ، وإن الجسم جوهر كثيف يعود إلى عنصره الأول ، ويصلح أن يكون فيه إشارة الى مذهب القائلين ان المادة تبقى ولا تفنى .

وقوله في هجو كافور :

ألا فتى يورد الهندي هامته ... كيما تزول شكوك الناس والتهم
فإنه حجة يؤذي القلوب بها ... من دينه الدهر والتعطيل والقدم

فإن فيه إشارة إلى مذهب الدهرية القائلين إن العالم موجود أزلا وأبداً لا صانع له ، والمعطلة القائلين إن العالم فارغ عن صانع أتقنه وزينه . وقوله في مدح كافور :

وكم لظلام الليل عندك من يد ... تخبر أن المانوية تكذب

فإن فيه إشارة الى مذهب المانوية القائلين إن مبدأ هذا العالم كونان أحدهما نور والآخر ظلمة ، وإن الخير من النور والشر من الظلمة .

وقوله من قصيدة يمدح بها طاهر العلوي :

إذا علوي لم يكن مثل طاهر ... فما هو إلا حجة للنواصب

فإن فيه إشارة الى فرقة يقال لها الناصبية وهي تدين ببغضة علي بن أبي طالب .

وقوله :

هون على بصر ما شق منظره ... فإنما يقظات العين كالحلم

فإن فيه إشارة الى مذهب السوفسطائية المنكرين لحقائق الأشياء ، وقد استدل فريق بهذا البيت على أن المتنبي كان يعتقد هذا المذهب كما استدل آخرون بقوله :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تمتع من سُهاد أو رُقاد ولا تأمل كرى تحت الرجام
فإن لثالث الحالين معنى سوى معنى انتباهك والمنام

على أنه كان يدين بالتناسخ الذي يقول أصحابه إن الروح تنتقل من جسم إلى آخر مكافأة لصاحبه على خير قدمه ، أو مجازاة على شر اجترمه . وقوله:

يقولون تأثير الكواكب في الورى فما باله تأثيره في الكواكب

وقوله :

وقد زعموا أن النجوم خوالد ولو حاربته ناح فيها الثواكل

وقوله :

فتباً لدين عبيد النجوم ومن يدعي أنها تعقل

فإن في هذه الأبيات الثلاثة إشارة الى مذاهب بعض الحكماء وما يعتقدونه في الكواكب العلوية من تأثير في عالم الارض ، وقد يستلزم الخلود لها . وإثبات العقل لها وإشارة إلى أن كلمة القوم لم تتفق على ذلك ، وان لكل معتقد من يخالفه ، ولهذا عبر بكلمات : يقولون وزعموا ، ومن يدعي ، ولم يبين رأيه في ذلك ، ولكن التعبير بالكلمات السابقة يدل على أنه لا يشايع هذه الفرق في اعتقادها هذا .

ووقع في شعره ذكر رجال من الحكماء المشهورين في مثل قوله :

يموت راعي الضأن في جهله ميتة جالينوس في طبه

وقوله :

من مخبر الأعراب أني بعدهم شاهدت رسطاليس والاسكندرا
وسمعت بطليموس دارس كتبه متملكا متبديا متحضرا

وقوله :

إذا داء هفا بقراط عنه فلم يعرف لصاحبه ضريب

وربما جرى على طريقة الحكماء في الاستدلال والتعليل كقوله :

إذا غامرت في شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فطعم الموت في امر حقير كطعم الموت في أمر عظيم

وقوله :

وإذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تكون جبانا

وقوله :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلامُ

ومن تتبع كلام ابي الطيب بإمعان ، وجد فيه كثيراً من الآراء والمنازع الفلسفية ، مما يدل على أنه كان مطلعاً على شيءٍ من هذا العلم عارفاً بأخبار رجاله ، وما اشتهر به كل منهم من الخصائص ، عارفاً بمذاهبهم واختلافهم في فناء الروح والجسم وبقائهما وبما يعتقده فريق منهم في النجوم وما شاكل ذلك .

ولكنه لا يجد فيه كلَّ نوع من أنواع الفلسفة العلمية والعملية ، بل لا يكاد يجد للفلسفة الطبيعية والرياضية والالهية إلاَّ أثراً ضئيلاً يتراءى في الأبيات المتقدمة وأشباهها . ومثل هذا القدر يجوز أن يكون شائعاً فيه الحكماء بعد أن اطَّلع على أقوالهم أو سمعها ، ولكنه لا يدلُّ على أنه درس هذا العلم درساً وافياً واتخذ لنفسه فيه طريقاً اختصَّ به كما يفعله الراسخون في هذا العلم .

فلم يبق من الأقسام التي برَع فيها براعةً فائقة إلاَّ طرفٌ من الفلسفة العملية وأكثره مما يتصل بالأخلاق ، وليس له فيه نظريات يثبتها بالبراهين وآراء يدعمها بالأدلة وإنما هي جملٌ محكمةٌ رائعةٌ بليغة ينطق بمثلها الحكماء اذا تصدَّوا للبحث في الأخلاق وإن كان كلامهم أدنى في باب البلاغة من كلامه .

وليست حكمته كلها مقتبسة من كلام الحكماء ولا كلها خطرات نفسية ، وإنما هي مزيجٌ مما اقتبسه من غيره ومما هدَته اليه فطرتُه وأرشدته اليه تجاربه .

ولعلَّ أعظمَ مصدر لحكمته هذه هو حياته لأنه تعاقبت عليه أطوارٌ من الحياة مختلفةُ الأشكال من سعادةٍ وشقاءٍ وفاقةٍ ورخاءٍ وروعةٍ وأمن وقد جرب الناس وذاقهم وأكلهم ، ودرس الحياةَ درساً دقيقاً وافياً واستقصى كثيراً من سجايا الناس وطباعهم ونعى عليهم كثيراً منها ، وقد كان جيد النقد دقيق الحس شديد الطُّموح إلى الإمارة شديد الاعتداد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بنفسه عظيم الاعجاب بشعره محباً للمال حباً جماً متبذلاً في سبيله مفتوناً بالقوة منذ الحداثة كثير التغني بها فأثرت هذه العوامل المختلفة في نفسه وكان من أثرها ما تمثله أبياته في الحكمة كقوله :

أذم الى أهل الزمان أهيله ... فأعلمهم فدمٌ وأحزمهم وغدُ
وأكرمهم كلبٌ وأبصرهم عمٍ ... وأسهدهم فهدٌ وأشجعهم قِردُ

وقوله

ومن نكد الدنيا على الحرّ أن يرى ... عدواً له ما من صداقته بدُّ

وقوله :

وإنما نحنُ في جيل سواسية ... شرٌّ على الحر من سقم على بدن

وقوله :

إنما أنفس الأنيس سباعٌ ... يتفارسن جرةً واغتيالا
من أطاق التماس شيء غلابا ... واغتصابا لم يلتمسه سؤالا
كلُّ غادٍ لحاجةٍ يتمنى ... أن يكون الغضنفر الرئبالا

وقوله :

كلُّ حلمٍ أتى بغير اقتدار ... حجةٌ لاجئٌ اليها اللئامُ

وقوله :

عشْ عزيزاً أو مت وأنت كريم ... بين طعن القنا وخفق البنود
فرؤوسُ الرماح أذهب للغيـ ... ـظ وأشفى لغِلّ صدرِ الحسود
فاطلب العزّ في لظى وذرِ الـ ... ـذلّ وإن كان في جنان الخلود
بقتل العاجز الجبانُ وقد يعـ ... ـجز عن قطع بخنقِ المولود
ويُوقى الفتى الخشن وقد خوّ ... ض في ماء لبة الصنديد

وقد يجد الباحث في شعره غير ما تقدم كثيراً من الاشارات الى المصطلحات الفقهية كقوله :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأخ لنا بعث الطلاق ألية لأعلنّ بهذه الخرطوم
فجعلت ردي عرسه كفارة في شربها وشربت غير أثيم

وقوله :

اذا ما فارقتني غسلتني كأنا عاكفان على حرام

وقوله :

شيخٌ يرى الصلوات الخمس نافلةً ويستحلُّ دمَ الحجاج في الحرم

وقوله :

وزارك بي دون الملوك تحرُّجي اذا عن بحر لم يجز لي التيمم

وكذلك يجد كثيراً من أسماء الأمم والقبائل والرجال الذين اشتهروا في التاريخ بحوادث معروفة كقوله :

فكأن كل سحابة وكفت بها تبكي بعيني عروة بن حزام

وقوله :

لو كان صادف رأسَ عازرَ سيفُه في يوم معركةٍ لاعيا عيسى

ويجد كثيراً من اسماء الاماكن من اودية وجبال وهضبات وانهار ومياه وقرى وامصار كما يتمثل ذلك في قصيدته التي قالها عند رجوعه من مصر ووصوله الى الكوفة وغيرها
ويجد كثيراً من اسماء الكواكب وما يتعلق بطلوعها وغروبها من الحوادث المزعومة كقوله :

وتنكر موتهم وانا سهيل طلعت بموت اولاد الزناء

وقوله :

أحبك يا بدر الزمان وشمسه وإن لامني فيك الشهى والفراقد

وهذا وامثاله يدل على ان ابا الطيب كان عارفاً بعلوم الدين عالماً بأيام الناس واخبارهم واسع الاطلاع على التاريخ وعلى تقويم البلدان عالماً بكثير من الامكنة وما يتصل بها من حوادث ملماً بمعرفة الافلاك وما يرتبط بها مما كان يعتقده اهلُ عصره .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولولا خشية الاطالة لاوردنا امثلةً متعددة تدل على علو كعبه في كل ما تقدم .

ولعل في هذا القدر ما يبين ان المتنبي وُلد ونشأ وشب ودرس وقال الشعر الجيد في الكوفة وانه استمد ثقافته اللغوية والادبية من الكتاب والاعراب و كتب الورّاقين واقوال الشعراء والحكماء المعلومين والمجهولين ، وثقافته العلمية من مصادر سبق ذكرها ومن مصادر أخرى لم يسمح الزمن بكشف النقاب عنها بعد ، ومن العلوم اللسانية والشرعية ، وأن فلسفته تكاد تنحصر فيما يتصل بالاخلاق ، وأنه استمدها من حياته وفطرته وتجاربه وأمدها بما اطّلع عليه من كلام الحكماء ، وان ثقافته على علاتها عاليةٌ جداً لا سيما الادبية وقد ظهرت آثارها في ابياتٍ من شعره بلغت الغاية القصوى في طلاوة التركيب ونباهة المقصد والاعجاز في الايجاز وقد قدرها اهلُ الفضل حق قدرها منها قوله :

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يُراقَ على جوانبه الدم

قال ابو الفتح بن جني : اشهد بأنه لو لم يقل إلاّ هذا لكان اشعر المجيدين ولكان له ان يتقدم عليهم . وقوله :

مَنْ يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

قال العكبري : هذا من احسن الكلام ، ولو خرس بعده لكفاه . وقوله :

إلف هذا الهواء اوقع في الانفس ان الحمام مرّ المذاق
والاسى قبل فرقة الروح عجز والاسى لا يكون بعد الفراق

قال ابو العلاء المعري : ولو لم يقل شاعرهما سواهما لكان له شرف منهما وجمال . وقوله الذي قال فيه ابو العباس النامي : كنت اشتهي أن أسبقه إلى معنيين قالهما ما سبق اليهما ، احدهما :

رماني الدهر بالارزاء حتى فؤادي في غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتني سهام تكسرت النصال على النصال

والثاني :

في جحفل ستر العيون غباره فكأنما يبصرن بالآذان

وكان النامي عاتب سيف الدولة لتفضيله المتنبي عليه وسأله عن سبب ذلك فأمسك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عن الجواب ، فلما ألح عليه قال له : لأنك لاتحسن أن تقول كقوله (أي المتنبي)

يعود من كل فتح غير مفتخر وقد أغذّ اليه غير محتفل

ولكثرة ما في شعره من العيون والمقلدات، لا يكاد الانسان يستطيع أن يعلم ماهو الأفضل فيه . فله في باب الغزل أبيات فذة كقوله :

ازورهم وسواد الليل يشفع لي وأنثني وبياض الصبح يغري بي

وقوله :

وخصر تثبت الاحداق فيه كأن عليه من حدق نطاقا

وقوله :

سفرت ويرقعها الحياء بصفرة سترت محاسنها ولم تك برقعا
فكأنها والدمع يقطر فوقها ذهب يسمطي لؤلؤ قد رصعا
كشفت ثلاث ذوائب من شعرها في ليلة فأرت ليالي أربعا
واستقبلت قمر السماء بوجهها فأرتني القمرين في وقت معا

وقوله :

حسان التثني ينقش الوشي مثله إذا مسن في أجسامهن النواعم
ويبسمن عن در تقلدن مثله كأن التراقي وشحت بالمباسم

وله في المدح أبيات منقطعة القرين كقوله في مدح علي بن إبراهيم التنوخي :

كأن الهام في الهيجا عيون وقد طبعت سيوفك من رقاد
وقد صفت الأسنة من هموم فما يخطرن إلاّ في فؤاد

وقوله في مدح عضد الدولة :

حمى أطراف فارس شمري يحض على التباقي بالتفاني
بضرب هاج أطراب المنايا سوى ضرب المثالث والمثاني
فلو طرحت قلوب العشق فيها لما خافت من الحدق الحسان

وقوله في مدح سيف الدولة :

تدوس بك الخيل الوكور على الذرى وقد كثرت حول الوكور المطاعم
إذا زلقت مشيتها بيطونها كما تتمشى في الصعيد الارائقُ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وله في باب الوصف ما يقصر عن إدراكه المتطاول اليه كقوله في وصف خيمة كان تحتها سيف الدولة :

عليها رياض لم تحكها سحابة ... وأغصان دوح لم تغن حمائمه
وفوق حواشي كل ثوب وجه ... من الدر سمط لم يثقبه ناظمه
ترى حيوان البر مصطلحاً بها ... يحارب ضد ضده ويسالمه
اذا ضربته الريح ماج كأنه ... تجول مذاكيه وتدأى ضراغمه

وقوله في وصف أغصان شعب بوان :

غدونا تنفض الأغصان فيها ... على أعرافها مثل الجمان
فسرت قد حجبن الشمس عني ... وجئن من الضياء بما كفاني
وألقى الشرق منها في بناني ... دنانيراً تفرّ من البنان
لها ثمر تشير اليك منها ... بأشربة وقفن بلا أوان

وله كثيرٌ من الوصف الرائع في وصف الأسد والصيد والخيل والحرب وغيرها .

الخلاصة

صفوة القول أن أبا الطيب أمةٌ وحده في شعره وأدبه وحكمته وان محاسنه لا تكاد تحصى وطرائفه لا تستقصى .

وان هذا الموضوع على قلة مظانه مترامي الأطراف صعب المراس يفتقر الى معارضة الأبيات التي قالها بالأبيات التي زعموا انه اخذ معانيه منها وبيان ما بينها من الفروق وايراد الشواهد من كلامه لتأبيد ما اسلفنا ذكره .

وهذا كله يستدعي زمناً طويلاً ، ولكن ضيق الوقت المحدود تحجر واسعاً ، واضطررنا الى أن نبلغ بالايجاز درجة الإلغاز ، وان نحشر المباحث الواسعة في عناوين ضيقة ، وندمج نوعاً من ثقافته في آخر ، وان نضرب صفحاً عن ايراد ابيات أخر من شعره هن المثل الاعلى في ثقافته الادبية والعلمية ، حتى جاءت كلمتنا هذه كقائمة النجار يسرد فيها أعداد الثياب ولكن لا يبين فيها ما لكل واحد منها من الخصائص والمميزات ولا ما في كل منها من روعة في الوشي ودقة في الصنعة وجمال في الهيأة والشارة .

وعسى ان تسامح الأيام بوقت يتسع لتوفية هذا الموضوع حقه والسلام عليكم .

سليم الجندي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net